الأدب فى سير أعلامه

# بـــيرون

ذلك العبقرى المتمرد الذى غنى أروع
أناشيد الحرية، ولاقى الموت فى سبيل الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

أرسل جورج بيرون إلى مدرسة صغيرة فى أبردين وهو دون الخامسة ، ولكن أمه لم تطمئن إلى تعليمه فيها فعهدت إلى أستاذين بتعليمه فى المنزل إلى جانب المدرسة وقد حبب إليه أحدهما التاريخ وعلى الأخص تاريخ الرومان، فراح يقرأ منه فى غير ملل، وعلمه الآخر اللاتينية ، بينما أخذ يوحى إليه مبادئه الكلفنية ، والطفل يستمع إليه فى ذلك مندهشاً متحيراً يتساءل فى صمت كيف يقدر الشقاء على قوم قبل مولدهم، وما جريرتهم حتى يشقون وأى فرق بينهم وبين الذين قدرت عليهم السعادة ؟ ويستمع الصبى إلى مثل هذا فى حديثه مع خادمته مارى ، حينما يسألها وهى تتلو الإنجيل قائلاً : وما ذنب قابيل قبل أن يقتل أخاه ؟ ويضيق حين تجيبه أنه قدر عليه الشقاء ، فيقول فى غضب: وكيف يسأل عن جريمته إذاً ؟ على أنه يطرب للتلة الإنجيل وإن لم يفهم أكثرها ويهتز قلبه لما يتخيله عقله الصغير من صوره

والصبى قوى الخيال يصور له خياله كل شىء ويلازمه ما يتخيل أينما ذهب ، وكانت صورة الشيطان الذى طالما حدثته عنه مارى تتملك لبه وتصحبه فى الغداة والعشى ، فإذا ترك فى مخدعه وحده نفت النوم عن عينيه صورة الشيطان حتى لتمتلئ الغرفة حوله بالأشباح ، وإذا أطل من نافذته وجد المقبرة القريبة منه ملأى بالشياطين من كل هيئة ومن كل طول وهى تتعابث وتتراقص

ويستمع الصبى أيضاً إلى أحاديث أمه وخادمته عن أجداده لأمه وأجداده لأبيه وكيف قرنت بالشر أيامهم فيعزو ذلك إلى أنه قد قدر عليهم الشقاء من قبل فكانوا من حزب الشيطان كما كان قابيل من حزب الشيطان ، ويخاف الصبى أشد الخوف أن يكون نصيبه من الحياة مثل نصيب هؤلاء وهو يرى من أثر الشيطان فى خلق أمه ما يرى ثم يرى منه فى نفسه ذلك العرج الذى ازداد ألمه منه حينما بلغ السابعة

ويعرف الصبى فى المدرسة بحدة ذكائه بقدر ما يعرف بإهماله وانصرافه عن دروسه ، ويسمع منه معلموه عبارات يبدو بها أكبر من سنه ويدهشهم منه قراءته الخارجية التى لن يبلغ نصيبه منها عشرة من أقرانه مجتمعين ، وكان شغفه بالشرق عظيما فقرأ قصص ألف ليلة وليلة وألم بقدر كبير من تاريخ أمم الشرق ، وفى مقدمتهم الترك ، وكانت أمه على قصر ذات يدها لا تضن عليه بما يطلب من الكتب ، فكان يعد ذلك منها أكبر حسناتها إن كان ثمة لها غير هذه من الحسنات

وعرف شاعر الغد بحدة عاطفته وتمرده على القوانين والأوضاع الرتيبة ، وعرف كذلك باستعداده للنضال والهجوم إذا استفزه إلى ذلك أحد. عاد إلى منزله ذات يوم يلهث وفى وجهه آثار معركة، فأجاب على تساؤل خادمته عن هذا بأنه تربص بغلام كان أهانه فتوعده حتى وقع عليه فى الطريق فأذاقه من بطشه وأتم حديثه قائلاً : « وكيف لا أنفذ ما توعدته به ؟ ألست بيرونى النسب » ؟

واستقرت فى أعماق نفسه الصغيرة مناظر اسكتلندرة برواسيها الشامخات التى تجلل رؤوسها الثلوج وتعلو بعض قممها على السحاب، وكانت هذه الأجرام الهائلة تهز نفسه وتستهويه أكثر مما تفعل

الزهور والرياض وأشباهها من مناظر الطبيعة الهادئة الوديعة ...

وتفتح لب الصبي للحب وهو فى الثامنة ، فقد رأى فى إحدى جولاته مع أمه ابنة أحد الفلاحين فأحبها حتى ما يطيق أن يفارقها؛ ولما فارقها على رغمه كانت تجيش نفسه وهو فى تلك السن بمعانى الوجد والحنين ... على أنه ما لبث وهو فى التاسعة أن هام بابنة عم له هياماً استأثر بلبه ، فما يفكر إلا فيها وما يرى حسناً يقاس إلى حسنها ، وإنه ليحس إذا جانسها بما يملأ قلبه من معانى الوداعة واللين واللطف حتى لينسى عنفه وحدته أتم النسيان ، ولا يزعجه إلا خجله من مزجه ، وكم يتمنى أن لم تكن له تلك الماهة التى يعظم خجله منها أمام ابنة عمه مارى أكثر مما يعظم تلقاء غيرها من الناس ...

وكانت أمه توقن فى قرارة نفسها أن ابنها سيكون رجلاً عظيماً فى غده. ولعل مرد ذلك إلى ماتتمناه الأمهات عادة لأبنائهن، ولعل مرده إلى ما أخذته من عرافة ريفية نبأتها بما سيكون له من خطر فى غده . وها هى ذى الأيام توشك أن تحقق جانباً من نبوءة العرافة ، فلقد كان للورد الخامس فى الأسرة وهو شقيق جده حفيد هو الذى يرث اللقب من بعده فمات هذا الحفيد عام ١٧٩٤ فلم يبق بين الطفل واللقب إلا أن يموت ذلك اللورد الشيخ ، وما لبث أن مات ذلك الشيخ بعد ذلك بنحو أربعة أعوام ، فانتقل لقب الأسرة الوراثى إلى الطفل وهو فى العاشرة . وفرحت أمه أشد الفرح ولكن الطفل يتجه إلى المرآة ويسأل أمه عما إذا كانت ترى فيه فرقاً بين يومه أمسه لأنه لا يرى شيئاً من ذلك .

ولكن هذا اللقب سوف يكون عظيم الأثر فى حياة شاعر الغد وموقف المجتمع منه ، إذ سيكون من أهم ما تواتى له من أسباب الإعجاب به وذهاب صيته فى الأوساط جميعاً

وتأهبت أمه لتذهب به من أبردين إلى حيث يتسلم ما ورثه مع لقبه الجديد من ثروة ، وكان الصبى يومئذ فى سنته الحادية عشرة ، ولقد عز عليه أن يغادر أبردين فيبتعد عن ابنة عمه مارى التى أحبها ذلك الحب الشديد وعن مناظر اسكتلندرة ، ويحرم مما بانت توحيه إليه شواهقها ووديانها، تلك الشواهق التى ألف تسلق جوانبها على الرغم من عاهته والتى زلت قدماه على سفح من سفوحها ذات يوم حتى أشرف على الموت لولا أن تداركه بعض من كان معه ، فلم يزده ذلك إلا تعلقاً بها وإقداماً على معاودة تسلقها

ورحلت الأم وولدها وخادمتهما ، وأحس الصبى أنه ينتزع نفسه من ملاعب طفولته انتزاعاً ، ولقد استقرت فى نفسه مناظرها وطيوفها ، وما أعظم ما سيكون لهاتيك الطيوف فى غد من الأثر فى شعره وخياله

وانتهى بهم السير فى نيوستد وحطوا رحالهم فى مهد الأسرة العتيق، فى ذلك القصر الذى أفنت جدره العتيدة السنين الطوال. ولشد ما أحبه الصبى وآنس فى هيكله وأبهائه وحجراته أحلاماً جديدة أضافها إلى سالف أحلامه ... وأقبل على الخدم يسألهم عما تقع عليه عيناه وعلى الأخص عن تلك الصور المعلقة على الجدران ... فهذه صورة اللورد التعس الذى ورث عنه الصبى ما ورث ، وتلك صورة أحد أجداده الذى أبلى أحسن البلاء فى الحروب الصليبية ومات فى الأرض المقدسة ، وهذه ... وهذه... والصبى معجب بذلك كله إعجاباً شديداً وإنه ليزهى أشد الزهو بأنه اللورد الجديد الذى آل إليه ذلك القصر وما فيه جميعاً .

وغرس الصبى بيده شجرة هناك لتكون ذكرى له

على أن ذلك القصر لم يعد يصلح للسكنى بسبب ما أصابه من التخريب أيام ذلك اللورد التعس ، ولم يك لدى أم الصبى ما يتطلبه إصلاحه من المال ، ولذلك لم تلبث أن تركته وابنها إلى مدينة نوتنجهام ... واعتلج فى نفس اللورد الصغير الألم لفراق قصره السحرى ، الذى أمل أن يتسلى به عن مارى دف وقد شف قلبه الوجد لبعده عنها . ولقد كان عجباً أن يحيها مثل هذا الحب فى التاسعة وأن يأسى على فراقها هذا الأسى وهو بعد لم يتجاوز الحادية عشرة ، ويذهب بعض علماء النفس إلى أن مثل هذه العاطفة المبكرة بشير بنبوغ صاحبها غداً فى مجال الفن ؛ ويروى عن دانتى أحد شعراء الدنيا الأفذاذ أن قلبه الغض نبض بحب بياتريس وهو لا يزال فى التاسعة من عمره .

( يتبع )

الخفيف